## نص أدبي حديث/ الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

### المحاضرة الرابعة: التجديد الشعري في المشرق (تجربة خليل مطران نموذجا 1872-1949)

هو ثالث كبار الشعر العربي الحديث وإن تميز كل منهم بخاصية، فشوقي اهتم بالإيقاع واهتم حافظ باللفظ الرنان، بينما حرص مطران على الخيال الجديد «وإن ضاعت منه الموسيقى الأخاذة أو اللفظة الرنانة في بعض الأحيان [i] ألم بالثقافة الفرنسية إلماما عظيما، فقد أتاحت له إقامته في باريس فرصة ارتياد مجالسها الأدبية عند الشعراء الرومانسيين، وأحاط قبل ذلك بثقافة عربية واسعة إضافة إلى الثقافة التركية. فقد حرص والد خليل مطران (العربي) على تزويد ابنه بالثقافة العربية وإمداده بدواوين الشعر العربي، فحصل على ثروة لغوية وأدبية وفكرية وشب منذ الطفولة على حب العربية وآدابها، وتعلم إلى جانب العربية اللغة الفرنسية واطلع من خلالها على آداب الغرب وفنونهم، إلى جانب إحاطته بالتربية البدنية في الكلية البطريركية ثم حصل في عامين بفرنسا ما فاته، وكوّنت تلك الثقافات شخصية مطران العربي المسيحي العصري.-دون أن ننسى الآثار النفسية لما عاناه من أحداث دامية في لبنان وما لقيه من متاعب بسبب الممارسات العثمانية دفعته لمغادرته، كما مرّ الشاعر بتجربة عاطفية لم يكتب لها النجاح بوفاة المرأة التي عاش مخلصا لذكرها وحيدا بلا رفيق أو أنيس.

-وكان من صفاته القلق والضجر والحس المرهف وهو ما جعله يختلف عن غيره من الشعراء "لم يكن محتاجا إلى جهد لإتباع مناهج الأدب الحديث لأنه درج على الدراسة الأوروبية فكان من البديهي أن يتجه إلى التجديد فيما يناسب طبيعته وما يلائم نفسيته الميالة إلى الرومانسية، لذلك رأيناه يتجه في تجديده إلى المعاني والأخيلة والصور الشعرية، فقد حرص على صيانة المباني الكلاسيكية والأوزان الخليلية"[ii].ولذلك كان تجديده هادئا ولم يأت في شكل ثورة جائحة ترمي إلى الهدم أو المناهضة-كما فعلت مدرسة الديوان خاصة- ولا إلى التفاخر والتباهي أو طلب المناصب والزعامات، فتجديده ضرورة نفسية وثقافية مهدت لها ظروف خاصة بالشاعر من جهة والعصر من أخرى، يقول: "ولهذا وجب أن يكون شعرنا متمثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم وإن كان مفرغا في قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية"[iii] . وقد كانت دعوته إلى التجديد في مراحل سابقة لكثير من الدعوات، وقد قدم لدعوته نماذجه الشعرية المطبقة لها.

نظرته إلى الشعر: يقول موضحا مذهبه في الشعر: «هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، قال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد... بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه إلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصوير وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعر الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر»[iv].وقد أوضح طه حسن هذا الاتجاه المطراني بقوله: " وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف، وإنما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر، وهو معتدل لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصوله وأساليبها في حرية، كما يتأثر القدماء في إطلاق فطرتهم على سجيتها، يكظم فطرته ولا يغشيها بالأستار الخداعة الخلابة وهو فني له في جمال الشعر مذهب، فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الأبيات وتتنافر وتتدابر، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء، حسنة التأليف فيما بينها، ثم فوق ذلك كله مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ولا عقلا صرفا وإنما هو مزاج منهما "[v]مناحي التجديد عند مطران:

أ- وحدة القصيدة: دعا إلى وحدة القصيدة فكريا وترابطها، لا يحذف منها بيت أو يقوم بيت مكان آخر وإلا اختل المعنى....فهو ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق وتوافقها...." [vi]

وكان من المجددين في بناء القصيدة العربية، وبدا سعيدا مزهوا بصنيعه وامتدحه، وعاب في القصيدة العربية تعدد أغراضها وعدم ارتباط معانيها، وتلاحم أجزائها وغياب المقاصد العامة التي توطد بها أركانها، وربما اجتمع في الواحدة ما لا يجتمع في أحد المتاحف من النفائس، ولكن بلا صلة ولا تسلسل[vii]،علما أن في ديوان مطران قصائد في الأغراض القديمة والمناسبات العابرة والمشاعر السطحية التافهة لم نجد فيها أثرا لهذه الوحدة.وممن سبق مطران إلى هذه الدعوة نظريا نجيب الحداد الذي عاب على الشعر العربي فقدانه الوحدة العضوية (فقد كان نقاد العرب يعيبون على الشاعر اتصال البيت الأول بالثاني في المعنى واللفظ[viii].

أما شعره القصصي والتاريخي فجاءت قصائده فيهما ذات وحدة موضوعية وفكرية، مرتبطة الأجزاء والمشاعر، تحقق فيها كثير من مقومات القصيدة المتكاملة التي اتجهت نحو الموضوعية مثل "حكاية عاشقين" 135/1-"مقتل بزركمهر"، 120/1، "فنجان قهوة" 148/1 "فتاة الجبل الأسود" 179/1-"الجنين الشهيد 223/1 ،"نيرون"...وربما أرجعنا توافر هذه الوحدة إلى ملاءمة القصائد القصصية لأنها ذات وحدات متجانسة.

ب- في فنون الشعر وموضوعاته: - دعا خليل مطران الشعراء إلى ترك المحاكاة والتقليد، لأنه يرى ضرورة تصوير الشاعر لعصره وبيئته وأن يكون صادقا في التعبير عن تجاربه ومشاعره، وكثيرا ما سخر من الشعراء المقلدين الذين يصفون ما لم يروه .

-تطرق لمشكلة خلو الشعر العربي من القصص وعلل ذلك بان العرب قد كرهوا التقيد بمعنى متصل واحد، إضافة إلى صعوبة إجادة النظم وإحكام حرف الروي بخلاف الغرب[ix].فالأولى كما يرى مطران أن يتغير شعرنا (كما تغير كل شيء في الدنيا) مع بقائه شرقيا، مع بقائه عربيا، مع بقائه مصريا[x]. وأهم ما جاء به في هذه المرحلة القصة الشعرية، وإن سبقه فرنسيس المراش بمحاولته المعروفة ب "الميمونسية".

**1-مطران وفن القصة الشعرية:**

لمطران مساهماته في تطوير هذا الفن وبعث الحياة فيه حتى غدا فنا قائما بذاته له قواعده وأصوله، ساعده على ذلك ثقافته التاريخية وثقافته الفرنسية واطلاعه على آداب العرب عموما وطرق معالجتهم للفنون الأدبية، إضافة إلى قدرته الفنية على الأداء الصادق والتحليل البارع والوصف وتصوير المنازع والمشاعر في دقة وإحكام.

-فمن قصصه ما استمد موضوعاته من التاريخ القديم أو الحديث الذين أحاط بهما ووضع فيهما كتابه "مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام (في جزأين، صدر الأول منهما عام 1893). ومنها ما كان من وحي خياله المبتكر وحسه المتوقد، وبعضها الآخر استمد من حوادث الحياة مما رأى فيه عبرة وموعظة ونصيحة أو خللا اجتماعيا أو عيبا من العيوب. ومن هذه القصص ما اتجه إلى تصوير البطولة والإشادة بالأبطال وكفاحهم، ومنها ما تناول الصراع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة.

-فمن التاريخ نجد "فتاة الجبل الأسود" ونيرون ومقتل بزرجمهر و "السور الكبير في الصين و"شيخ أثينة"

-ومن المجتمع والحياة نجد "الجنين الشهيد" ، وفتاة جميلة بائسة ، والعقاب.

-يتجه مطران في قصصه إلى الرمز، يعبر فيه عن دخيلة نفسه وسخطه على الظلم ويتغنى بالحرية بعد أن قاسى ضروب الاضطهاد، قصد بها إثارة الناس على الظلم وعرض مواقفه وآرائه بطريقة غير مباشرة [xi]. من ذلك قصة "اللبن والدم" ، يروي فيها قصة أمير ظالم أصر على دعوة إمام إلى إحدى موائده، واعتذار الإمام ولكن الأمير أصر، فحضر الإمام وصرّح أنه لا يتناول بأمر من الطبيب إلاّ اللبن، فلما أحضر له الخدم لبنا بدأ يحرم بياضه حتى أخذ لون الدم فارتاع الحاضرون وسأل الأمير، فوعظه الإمام ونصحه بالكف عن الآثام، يقول:

هذا نذير لا شفاعة بعده عند المهيمن أن تضر وتظلم

أسرفت في هذي الديار مهانة لكريمها ومعزة للمجرم

أوف البلاد بمثل أجرك حقها من خدمة ومحبة وتكرم

أردد إلى هذا الحمى استقلاله يخلص طعامك يا أمير من الدم

أما قصة "إن من البيان لسحرا" فيروي فيها حكاية شاعر سمعت العذاري بزيارته لقبيلتهن فذهبن لرؤيته وطلبن منه أن ينشدهن شعرا ففعل ثم عزف لهن على الرباب وروى قصة الأمير مهند بطل آل بدر الذي أحب فتاة من بني حمد وبين القبيلتين ثأر قديم، وقد شبه أحد النقاد هذه القصة ببعض الأدب الانجليزي والقصص الشعرية الأوروبية، لأن البطلة أو البطل فيها وفي معظم قصصه الأخرى يتنكر في سبيل الوصول إلى غرضه[xii]. وفي قصة "طفلين" يرصدهما تربيا معا وتحابا ثم فرق بينهما أهل القصر وزوجوا الأميرة من ثري.....فماتت .بينما رحل الشاب وعمل و عاد ثريا لعله يظفر بها فصدم بالخبر، وراح يزور قبرها يبكي وينوح ويستدعي انتباهه صدى من وراء الغيب، وقد نظم هذه القصة للغناء الشعبي بطلب من الشيخ سلامة حجازي وكان يغنيه منفردا. واعتبر النقاد قصيدة "نيرون" التي تقع في 20

مقطع شعري و430 بيتا من بحر واحد وروي واحد ملحمة شعرية، وكذلك قرر الشاعر في مقدمة القصيدة أنها تنتمي إلى هذا الفن الذي أوضح مقوماته وحاول بقصيدته "أن يستنفد وسائل الشعر العربي الموحد الروي في نظم الملحمة كما نظمها "هومير" و "دانتي" و"ميلتون" ( 47/3) وفيها تتجلى شخصية الشاعر وأسلوبه الرفيع وسيطرة العقل، مما يبتعد بها عن الشعر الملحمي، ويقترب من النزعة الوطنية والإشادة بالحرية، وفي النص سخرية مطران المريرة من "كليغولا" الماضي والحاضر، وفيه روح مطران الثائرة على الظلم، الموقظة للنفوس. أما في قصصه الأخرى فتغنى بمشاعره وأحاسيسه إزاء الطبيعة والأحداث، فصور "قصص الهوى في نفوس غيره" ، و رسم ضلوع الأحبة وأفئدة العشاق التعساء، وعلى رأسها قصته "حكاية عاشقين"، وقصة الجنين الشهيد (223/1) الطويلة (115 مخمسا) في ترابط كامل ورسم دقيق للمشاعر والصراعات النفسية والعاطفية وأسلوب قصصي جذاب، حتى وصفها صاحب مجلة "سركيس" بأنها "إلياذة الشعر الحاضر، ومعلقة النهضة الشعرية العصرية.

-وفي قصة "فنجان قهوة" يرصد جانبا من جوانب الظلم البشع، حكم به ملك على أحد حراسه بإرغامه على شرب قدح قهوة مسموم لأن ابنته أحبت الحارس واستشهدت في سبيله.....وكل قصصه صادرة عن إحساس صادق وعاطفة زاخرة وتعبير عن خلجات النفس، يقول: «وليس أكثر شعري بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعدتها، وقطع من الحياة بددتها فتوهمت أني استعدتها (مقدمة الديوان 10/1) يقول:

يا منى القلب ونور العين مذ كنت وكنت
لم أشأ أن يعلم الناس بما صنت وصنت
إن ليلاي وهندي وسعاد من ظننت

وإذا جفته رأيناه يتحول من هذه الموسيقى المطربة إلى الإيقاع الحزين والقوافي الممدودة الصوت:

-فيا وردتي ماذا أحالك جمرة؟ ويا جنتي ماذا أصارك نارا؟

-وفي هذه التجربة يقول أبو شادي: "وعاطفة الحب التي ألهبت فؤاد "مطران" في صباه ثم ألقته في لجة الحزن العميق بقية حياته، هي دعامة الزاوية في بنيان شعره الوجداني"[xiii]، فقد شكل الحب (حبه العذري-حبه للحرية والكرامة الإنسانية وحبه لبلاده وحبه لبني جنسه) ثلاثة أرباع ديوانه، الذي كان تعبيرا عن شعور فياض وإحساس صادق. من شعره الوجداني المعبر عن انفعالاته الحزينة قصيدته"الأسد الباكي 20/2 التي نظمها في مرضه بعد نكبة مالية اجتاحت كل ما يملك بسبب المضاربات، جعلته يضيق بالدنيا وبالناس:

وكم في فؤادي من جراح ثخينة يحجبها برداي عن أعين الناس
أسري همومي بانفرادي آمنا مكايد واش أو نمائم دساس
يخالون أني في متاع حيالها وأي متاع في جوار لديماس (20/2).

-كثيرا ما مزج مشاعره بالطبيعة وخلع عليها ما في نفسه من معان وألوان عاطفية ونفسية، مثل قصيدته "الوردة الزنبقة" التي يقول فيها:

تفقدتها والفجر يفتح جفنه كما انتبه الوسنان والجفن مثقل
فطفت على الأزهار في أمن نومها أنبهها جذبا إلي فتجفل
أحاول سلوانا بتشكيل طاقة فأقتل منها ما أشاء وأثكل
إلى أن بدت لي وردة مستكينة كأن دموع الفجر منها تهلل
لها طلعة الجاه المؤثل والصبا وفي الوجه تقطيب لمن يتأمل

-يقول محمد مندور "وجدانية خليل مطران تغاير ما ألفه الشاعر العربي في وجدانياته وذلك لأنها مركبة لا تصدر عن عاطفة موحدة تنبثق من القلب مباشرة، بل تمتزج بالخيال الشعري ويسيطر الفكر على صياغتها[xiv] وتمثل هذا الاتجاه الوجداني قصيدة "المساء" التي نظمها وهو مريض في الإسكندرية:

شاك إلى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لي قلبا كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي ويفتها كالسقم في أعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدري ساعة الإمساء
تغشى البرية كدرة وكأنها صعدت إلى عيني من أحشائي
والأفق معتكر قريح جفنه يغضي على الغمرات والإقذاء

فالطبيعة حزينة مثله، قلقة مضطربة كخواطره، والقصيدة كلها نموذج "صادق لفن مطران المركب الذي يبرز فيه عنصر الفكر إلى جانب جمعه بين العاطفة والخيال فالطبيعة حالة فيه وهو حال فيها، وكأن الطبيعة عنده كائن حي يتمتع بكافة خصائص البشر من خوالج وأحاسيس، ومثل هذا الامتزاج نجده في قصائده: حكاية وردة 288/2، بنفسجة في عروة، العصفور 101/1، مشاكاة بيني وبين النجم 29/1، وردة ماتت 10/2، هل تذكرين 135/2، قلعة بعلبك 97/1...ومما حمل الطابع الرومانسي الواضح منها: النرجسة 63/1 وفاجعة في هزل 35/1، في تشييع جنازة 20/1، "فنجان قهوة"، "الجنين الشهيد"، فإلى جانب الرسم الدقيق لخوالج نفسه وما كان يلم به من أحوال التفت مطران إلى مآسي الآخرين فرسمها بخياله ولونها بمعاناته...

**3–الوصف والتصوير:** حرص مطران على الخيال المعتمد على الخلق والابتكار، فجاء ديوانه معرضا جميلا من حلي الخيال لنفيسة...فهو يصور الطبيعة ومواقف النفس وغيرهما تصويرا حيا كأنها ماثلة أمامنا حتى عده النقاد "وصافا مصوّرا من الطبقة الأولى بين شعراء العربية لا ينافسه في هذا غير ابن الرومي..ولعل هذه الناحية التصويرية والوصفية هي التي أعانت الخليل على أن يكون شاعرا قصاصا لأن القصص يتطلب الوصف والتصوير وهما صفتان غالبتان على شخصية الخليل الفنية ، فقد أوتي مقدرة وخيالا محلقا مكنه من التشخيص حتى لكأنه ينفث في الجماد روحا وحياة جديدة وصف الرياض والأزهار والورود والربيع والجبال والعيون والقمر والنجوم كما دفعته العزلة والروح الرومانسية إلى وصف الليل وما اتصل به وإلى التخفي وراء مسحة من الحزن الشفيف لا تغادره.

–للشاعر قدرة فائقة على وصف الموقف وتمثل الحالة وتصوير الحركة وعرض المشاعر والانفعالات وعلى الملاءمة بين العواطف والمشهد ، فتأتي قصائده لوحات يلونها بالظلال والألوان المناسبة ويمزجها بالأحوال النفسية .

**4–الصياغة الشعرية عند مطران:** – حافظ مطران على الشكل العام للقصيدة والصياغة الفنية التقليدية القديمة حتى لا يخرج عن المألوف ويساير الذوق العام الذي كان يسيطر على العصر[xv] واهتم بتجديد المضمون الشعري في فنونه وأغراضه ومعانيه وأخيلته، ملخصا البيت المشهور لزعيم المدرسة الكلاسيكية أندريه شينيه"فلنقل أفكارا جديدة في أشعار قديمة"[xvi]

–عمل مطران على تطويع اللغة لتستوعب موضوعاته الرومانسية ومعانيه الإنسانية...دون أن تنبو عن الذوق العربي أو يحيد فيها عن القواعد المتبعة.

–كان اهتمام مطران بالفكرة أولا ثم المعاني واستقصائها، والوحدة الفنية، ولا يهمه بعد ذلك أن جاءت ألفاظه سهلة أم جزلة، بسيطة أم فخمة، ذات وقع ورنين موسيقى أم لا، أدت المعنى المراد أم قصرت...فكان بذلك شاعر معان لا شاعر صناعة وصياغة حتى اتهمه بعض النقاد بالعجمة في أسلوبه"والخروج عن الذوق العربي" في قصائده التقليدية المعروفة وشكل القصيدة العربية.

– اشتهر مطران بتهذيب الشعر وتنقيحه والعودة إليه وتغيير وضع الأبيات وشعره مليء بالألفاظ الغريبة الثقيلة على النطق والسمع، والألفاظ العامية المبتذلة والأساليب البسيطة الساذجة والعبارات والكلمات غير الشعرية فهو أقل بكثير من زميله حافظ وشوقي، إذ لم يلتفت الشاعر إلى التجديد في اللغة وفاته أن يدرك أهمية ذلك، مع حرصه على جرس الألفاظ وتطريبها في بعض القصائد كقصيدة المساء، كما تتجلى موسيقاه في جانبها النفسي المتجاوب مع الأحوال المنسجم مع ذبذبات العواطف، ومن تجديده في القوافي قوله في مشطور المتدارك في قصيدة "عروس فرشت لها الأرض بالزهر"

هب زهر الربيع في نظام بديع تحت أقدامها

وعوالي الغصون نكست للعيون نضر أعلامها

وله في المخمسات قصيدة "الجنين الشهيد" التي التزم فيها أيضا بقواف داخلية، يقول:

فهذا معاطيها، وذاك مد مداعب وهذا مداجيها، وذاك مشاغب

وهذا مراضيها، وذاك مغاضب وهذا مباكيها، وذاك ملاعب

وكلا ترى منهم على خلق رذل

وله في المثلثات قصة "الطفل الطاهر" 261/1 "وتحية الحرية" التي يقول فيها:

حييت خير تحية يا أخت شمس البرية

حييت يا حرية

-له محاولات في تلوين القوافي، كتصرفه في ترتيب تفعيلات السريع في "تهنئة بمولود جديد".

-جمع بين أكثر من بحر في قصيدة واحدة كقصيدة " غرام طفلين" 245/1 جمع فيها بين مجزوء الرمل وبحر الكامل وفي "الطفلان" جمع بين ثلاثة بحور الرمل ثم الطويل ثم الكامل، إلى جانب تنويع القوافي في بعض أبياتها ، وهي محاولات لا تخرج في مضمونها عن الأوزان العربية المعروفة، أما تحرره من وحدة القافية فلم يكن سباقا إليه، فقد نظم أحمد فارس الشدياق أبياتا متحررة في"كتابه الساق على الساق "الذي نشر بباريس 1855.

-ويبدو ابتكاره في المعاني جليا مكنه من امتلاكها واحتواء المعاني الغربية والعصرية ثقافته الواسعة، فقد اتسمت معانيه بالدقة وإحكام الأداء والطرافة والجدّة، وكانت "غزيرة لا تجف ولا تنضب، دقيقة لا تكذب ولا تهول، واضحة ليس فيها غموض ولا إبهام.

-أحيانا يزجى حكما وعبرا في ختام قصصه الشعرية .

- لم يكن مطران محاكيا أو مقلدا في أخيلته، فهو يطلق النفس على سجيتها مستعينا بثقافته وخياله الخصب، والحق أنه نقل الشعر العربي إلى أجواء جديدة وأمده بفنون وموضوعات غير مألوفة أو مكررة، وخطا به خطوات رائدة في مجال النهضة الأدبية المعاصرة.

الأستاذة الدكتورة نيكينة قلور